د. أحمد أمين جمعة الشربتلى(*)

اليمن ودورها فى النشاط الحضارى

١ – البحر الأحمر وأهميته والدول المطلة عليه :

تعريف البحر الأحمر :

يرجح تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم أنه قد اشتق من التغيرات اللونية فى مياهه ، فعادة يكون لون البحر أزرق مائل إلي الخضرة ولكن البحر الأحمر نتيجة لوجود نسبة كبيرة من الطحالب التى يميل لونها إلى الأحمر بسبب عملية التمثيل الضوئى النشطة – بفضل المادة المكونة لأنسجتها – وهذه الطحالب عادة تكون قريبة من سطح البحر فينعكس لونها على مياهه فتظهر مائلة إلى الإحمرار (١).

وقد عرف البحر الأحمر منذ القدم (ببحر القلزم) ويبلغ طوله من السويس شمالاً حتى مضيق باب المندب حوالى ١٣٠٠ ميل (٢١٠٠ كيلو متر) ويبلغ متوسط عرضه حوالى ١٩٠ ميلاً بحريًا(٢) ، ويصل أقصى عرض له حوالى مائتين وثلاثين ميلاً . أما مساحته فتبلغ حوالى ١٦٩,٠٠٠ ميلاً مربعًا ، وتحيط به من الجانبين سلاسل من الجبال (٣).

---

* – دكتوراه فى الحضارات الآسيوية (فنون وعمارة وآثار إسلامية) معهد الدراسات والبحوث الآسيوية– جامعة الزقازيق .

وإذا استعرضنا تاريخ البحر الأحمر فإن أهميته فى العصور القديمة والوسطى ليست بأقل من أهميته العظمى فى عالم اليوم . فقد كان هذا البحر يمثل طريقًا من أهم طرق التجارة العالمية فى تلك العصور ، ولم يكن يضعف من أهميته هذه وجود الطرق البرية المحيطة به والتى كانت تصل بين الشرق والغرب وإنما كانت تبرز هذه الأهمية تمامًا حينما تتدهور تلك الطرق بينما يظل البحر الأحمر يزدهر بالحركة والنشاط على مر السنين .

الأهمية الجغرافية للبحر الأحمر :

لقد اكتسب البحر الأحمر أهمية استراتيجية واقتصادية كبرى للعالم كله حيث يمثل طريقًا بحريًا هامًا منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، والبحر الأحمر بما فيه من جزر منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان بحرًا عربيًا إسلاميًا لكونه ضمن دار الإسلام التى شملت جميع شواطئ البحر الأحمر .

ومن هذا المنطلق فإن البحر الأحمر كان ولا يزال عاملاً للتنافس والتدخل الخارجى والصراعات المختلفة على مر العصور . كما إن خصائصه الاستراتيجية أغرت كثيرًا من الدول القوية بمحاولة السيطرة عليه مما جعله موقعًا للتنافس والصراعات الدولية والإقليمية قديمًا وحديثًا (٤).

ويتميز البحر الأحمر بين بحار العالم بموقعه الفريد لأنه من أهم البحار التى تربط بين العديد من البحار والقارات والأقاليم ، بل هو أهم أجزاء السلسلة الفقرية فى الاستراتيجية البحرية التى تمتد من المحيط الهندى ثم الخليج العربى ثم البحر الأحمر فالبحر الأبيض المتوسط ثم المحيط الأطلسى (٥).

كما يتميز البحر الأحمر بأهميته العالمية وموقعه الفريد إذ إنه يقع عند ملتقى قارات العالم الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا ، كما أنه يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية وقد ظل هذا البحر على مدى العصور المتعاقبة عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض ، إذ كان طريقًا للملاحة بينها ووسيلة لتسهيل التبادل التجارى والحضارى بين شعوب العالم (٦).

وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر المتوسط باعتباره نقطة البدء لعبور الأجناس ، والالتقاء الأول فيما بينها على الصعيد الديمغرافى والحضارى وذلك بعد رحلة طويلة دامت آلاف السنين قبل أن تتشكل خارطة الأمم التى نراها اليوم . وقد ظلت شواطئ البحر الأحمر

رغم ذلك ، وفيَّة لمبدأ التكافل بين البشر الذى سار عليه أجدادهم الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ وتمسكوا من جانبهم بشرف الحفاظ على دور الوساطة بين حضارة الأمم وتأمين سلامة سريان التجارة العالمى وتبادل الإنتاج الفكرى والحضارى(٧).

ملامح البحر الأحمر :

والواقع أن التحديد الجغرافى للبحر الأحمر من السويس إلى باب المندب هو تحديد مرتبط بالظاهرة الجغرافية البارزة الموجودة فى جنوبه وهو مضيق باب المندب ، أما البحر الأحمر تاريخيًا فلا يمكن فصله عن خليج عدن وميناء عدن والساحل الصومالى ، كما لا يمكن فصله عن قناة السويس شمالاً ، فإذا ما نظرنا إلى خريطة البحر الأحمر بصورة عامة نجد أن أهم الملامح البارزة فيه هى قناة السويس ومضيق باب المندب وخليج عدن ، بينما تبرز عدة جزر متناثرة على طول البحر الأحمر تختلف درجة أهميتها من مجموعة لأخرى ، وهناك عدد من الموانئ الهامة على طول سواحل هذا البحر بالإضافة إلى ميناء عدن (٨).

ويعتبر البحر الأحمر بمثابة حوض ضيق مستطيل من المياه يميل محوره فى اتجاه شمال شمال غرب إلى جنوب جنوب شرق ، حيث يفصل هذا البحر سواحل شبه الجزيرة العربية عن السواحل الإفريقية ، ويتفرع فى الشمال إلى خليجى السويس والعقبة ، وتفصلهما شبه جزيرة سيناء ، كما يتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة السويس التى تمر بممر البحيرات المرة وبحيرة التمساح ويتصل بخليج عدن والمحيط الهندى فى الجنوب عن طريق مضيق باب المندب (٩).

وقد ظل البحر الأحمر عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به ببعضها البعض وبغيرها من دول العالم فكان بذلك وسيلة تسهل عملية الاتصال والتبادل الحضارى والتجارى بين الدول المحيطة به ، كما أنه فى نفس الوقت يمثل المخرج الوحيد لبعض دوله الساحلية ، وبجانب الاستفادة من العمليات التجارية والملاحية فى البحر الأحمر كان أيضًا مصدرًا للإثراء عن طريق فرض الرسوم الجمركية(١٠) منذ القدم .

ومن المعروف أن البحر الأحمر من حيث طريقة تكوينه الجيولوجى الفريد قد تكون على طول خط عميق انفلقت فيه القشرة الأرضية وانفصل شرقها من غربها فإذا به بحرًا أخدوديًا عميقًا له جرف قارى بالمعنى العلمى ، كما إن البحر الأحمر هو أكثر أجزاء الأخدود الإفريقى اتساعًا وأكبرها عمقًا ، وتحدد سواحله خطوط الصدوع من الجانبين كما تمتد الجبال والتى

تمثل جوانب الأخدود المرتفعة على كلا جانبى البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب تاركة بينها وبين خط الساحل سهولاً ساحلية ضيقة تتركز بها مؤثرات البحر الأحمر المناخية من حيث ارتفاع درجات الحرارة وارتفاع معدلات الرطوبة النسبية (١١). وقد نشأت الصخور الهشة لليمن وشرق إفريقيا نتيجة للانبعاثات البركانية (١٢).

مناخ البحر الأحمر :

يعتبر مناخ البحر الأحمر من أكثر بحار العالم ارتفاعًا فى درجات الحرارة والملوحة ، أما المنطقة الشمالية منه فمعتدلة نسبيًا . وتزداد حرارة سطح البحر باتجاه الجنوب والغرب وتقل الملوحة والحرارة من الشمال إلى الجنوب . أما الرياح فهى موسمية غير مستقرة وتختلف حركة التيارات البحرية بين الشتاء والصيف (١٣). ونتج عن هذه الظروف المتمثلة فى ارتفاع درجة الحرارة وارتفاع ملوحتها وصفائها – بسبب عدم وجود أنهار تصب فى البحر – توفر الظروف الملائمة لنمو حيوان المرجان ، وتنتشر الحواجز والحلقات المرجانية فى كل أنحاء هذا البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، كذلك الحواجز المرجانية على طول السواحل وموازية لها .

أهم الدول المطلة على البحر الأحمر :

تطل على البحر الأحمر الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان وساحل الدناكل وساحل الصومال من الغرب ، والبحر الأحمر حوض شريطى الشكل يفصل بين كتلتين من القشرة الأرضية هما شبه الجزيرة العربية وكتلة شمال إفريقيا وهو يتصل من الشمال بالبحر البيض المتوسط عبر قناة السويس ومن الجنوب بالمحيط الهندى عبر مضيق باب المندب (١٤). ويتفرع البحر الأحمر إلى ذراعين الشمالى الشرقى هو خليج العقبة (١٥).

ويوجد عند التقاء خليج العقبة والبحر الأحمر مضيق تيران الغربى وهو الممر المائى الوحيد الصالح للملاحة وهو موازى لساحل سيناء شمال شرم الشيخ ، أما مضيق تيران الشرقى فتكاد تسد مجراه الصخور والحواجز المرجانية ولا يتجاوز عرضه ٨٠٠ متر . أما خليج السويس فيبلغ طوله من مدينة السويس حوالى ١٧٥ ميلاً ويتراوح اتساعه ما بين ١٠ – ١٢ ميلاً (١٦) . وتوجد فى قمته العديد من الجزر والتتوءات الصخرية التى تجعل الملاحة فيه صعبة إلى حد كبير وتفصل بين خليج العقبة والسويس شبه جزيرة سيناء .

ونظراً لشكل البحر الأحمر المستطيل وشبه المقفل فإن له مداً وجزراً خاصان به يسيران غالبًا فى اتجاه عقرب الساعة ولكن ميعاد المد والجزر يختلف باختلاف الأماكن بل وقد لا يرتفع الماء أو ينخفض فى بعض المناطق (١٧).

أهم جزر البحر الأحمر :

توجد فى البحر الأحمر مئات الجزر التي تقع بالقرب من ساحليه الشرقى والغربى والقليل منها تقع بعيداً عن السواحل ، ومعظم هذه الجزر ضيق المساحة ، ونظراً لطبيعة البحر الأحمر الأخدودية وما صاحبها من نشاط نارى فإن بعض هذه الجزر من الصخور مما يدل على هذا النشاط النارى وخاصة الصخور البركانية فى عدد من جزر البحر الأحمر . ويوجد حوالى ٣٧٩ جزيرة على البحر الأحمر معظمها جزر صغيرة جداً بمعدل ١ ، ٢ جزيرة كل ميل مربع من السطح المائى (١٨). ومعظمها يقع فى الجزء الجنوبى من البحر . وأهم هذه الجزر هى بريم ومولبلة الواقعتان داخل مضيق باب المندب وتتلوهما جزيرتا تيران وصنافير الواقعتان عند مدخل خليج تيران المفضى إلى خليج العقبة ، وتقع جزر جوبال عند مدخل السويس وأكبر جزيرة عند خليج السويس هى جزيرة شدوان .

وهناك جزيرة حالب أيضًا تقع فى خليج عصب عند الطرف الجنوبى من الساحل الإريترى وهى تلى جزيرة بريم وفى شمال جزيرة حالب جزيرة فاطمة ويقع أرخبيل حنيش شمال حالب وأكبر جزر هذا الأرخبيل هى جزيرة حنيش الكبرى وجزيرة رقر التى تتميز بقيمة استراتيجية عالية بفضل ارتفاعها الذى يتيح إمكانية مراقبة ورصد الأنشطة البحرية التى تجرى فى المياه المحيطة بها .

ويعد حوض البحر الأحمر وجزره المرجانية الرائعة وشواطئه الرملية الجميلة ومدنه الحالمة نقلة حضارية هامة بالنسبة لعلماء الأجناس وطبقات الأرض ، وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر باعتباره نقطة بداية لعبور الأجناس المختلفة من شتى بقاع العالم .

ويجدر الإشارة هنا إلى أن طريق الخليج العربى لم تنجح فى منافسة طريق البحر الأحمر وهذا يعود إلى أن طريق البحر الأحمر أقصر مسافة من طريق الخليج العربى إضافة إلى صعوبة طريق الخليج المتمثلة فى المرحلة البرية القاسية التى كانت تقطعها قوافل التجارة فى أعالى دجلة والفرات إلى حلب وفيها إلى موانئ البحر المتوسط ، كما أن الملاحة فى الخليج كانت تتعرض لأخطار القرصنة (١٩).

ويُمكن تصنيف أهمية البحر الأحمر واليمن فى الآتى :

١ – الأهمية التاريخية السياسية من حيث أن البحر الأحمر كان همزة الوصل بين إقليم اليمن وبين العالم المحيط به وبالأخص الأقطار العربية والإفريقية ، والعالم الخارجى فى الشرق والغرب .

٢ – الأهمية الاستراتيجية من حيث أن اليمن يسيطر على المنفذ الجنوبى للبحر الأحمر المعروف بباب المندب والذى يقع بين الزاوية الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب وبين إفريقيا ويربط البحر الأحمر بخليج عدن والمحيط الهندى . وتشطر جزيرة ميون اليمنية هذا المجرى المائى إلى قناتين ، قناة شرقية عرضها حوالى ميلين وعمقها أقل من مائة قدم ، وقناة غربية عرضها تسعة أميال وربع وعمقها يقارب ألف قدم . وتجرى الملاحة عمليًا عبر القناة الغربية على طريق يبعد مسافة ميلين عن جزيرة ميون وسبعة أميال عن الساحل الإفريقى .

٣ – الأهمية الاقتصادية : فقد كان للبحر الأحمر الأثر الكبير فى الحركة التجارية النشطة لليمنيين عبر العصور التاريخية المختلفة . كذلك الدور الكبير الذى لعبوه فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب كما أن وجود الثروة السمكية فى هذا البحر قد أدى إلى انتشار القرى الصغيرة على الساحل والتى يعمل سكانها فى صيد الأسماك (٢٠).

٢ – اليمن جغرافيًا وأهمية موقعها عند المدخل الجنوبى :

الشخصية الجغرافية لليمن :

لكل دولة من دول العالم شخصيتها الجغرافية التى تميزها عن غيرها من سائر الدول والتى تنتج عنها تفاعل دؤب على مر العصور بين الإنسان والبيئة . واليمنيون كشعب دؤب فى كفاحه استطاعوا أن يستثمروا البيئة التى عاشوا فيها فوق أرض اليمن إلى درجة أثارت الإعجاب وأن يبنوا لهم فيها حضارة من أعرق الحضارات وأقدمها وأن يحملوا هذه الحضارة إلى شعوب أخرى كانت تعيش خارج حدودهم فكانوا بحق رسل حضارة وثقافة لهم شخصيتهم الجغرافية البارزة .

أهمية الموقع الجغرافى لليمن :

تتميز اليمن بموقع جغرافى على جانب عظيم من الأهمية فوقوعها فى الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية عند نقطة تقترب فيها القارة الآسيوية من قارة إفريقيا ولا يفصل بينها إلا

شقة بحرية ضيقة هى بوغاز باب المندب جعلها حلقة اتصال بين القارتين ومعبراً تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حتى اليوم فعن هذا الطريق عبرت الجماعات الإفريقية إلى جنوب الجزيرة العربية ومنه تسربت على طول السواحل الجنوبية لقارة آسيا (٢١).

وتطل اليمن على بحرين هامين هما البحر العربى وخليج عدن اللذان يجاورانها من ناحية الجنوب والبحر الأحمر الذى يجاورها من ناحية الغرب . وكان هذان البحران ولا يزالان طريقًا للملاحة الدولية تمر به التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق رئيسى من الدرجة الأولى وطالما تنافست على التحكم فيه الدول العظمى من أيام البطالمة إلى وقتنا الحاضر .

أما البحر الأحمر فيربطها بالعربية السعودية والحبشة كما يربطها بمصر وبلاد الشام وارتباطها بالسعودية ارتباط قديم وكانت الصلات دائمة بين موانئ موزع والمخا والحديدة وبين ميناء جدة ، فكثير من الغلات الزراعية كانت تنقل من اليمن إلى السعودية عن طريق البحر وكذلك وفود الحجاج التى تأتى إليها كل عام .

تقع اليمن بين خطى عرض ١٢° ، ١٩° شمالاً وبين خطى طول ٤٢° ، ٥٣° شرقًا . أما الموقع الجغرافى لليمن فقد أعطاها استراتيجية كبيرة ، فهى تطل على جهتين هما : البحر الأحمر فى الغرب وخليج عدن والبحر العربى والمحيط الهندى فى الجنوب ، وكذلك فإن اليمن تحتل نقطة التقاء جغرافى هامة بين قارتى آسيا وإفريقيا(٢٢) .

وقد جعل هذا الموقع الجغرافى لليمن وضعًا يؤهلها للتحكم فى الملاحة البحرية من وإلى البحر الأحمر ، مما هيأ لها أن تلعب دوراً فى تاريخ التجارة الدولية القديمة ، فمن مظاهر استغلال اليمنيين لموقع بلادهم هو إرساء العديد من الصلات البشرية والاقتصادية مع العالم الخارجى مثل مصر وسواحل شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا .

والواقع أن ارتباط اليمن بمصر كان ارتباطًا وثيقًا منذ العهدين المعينى والسبأى ، فكانت تجارة البخور والمر رائجة فى مصر والتى كانت تحملها القوافل اليمنية قديمًا وكانت تجد طريقها إلى مصر بمد مياه البحر الأحمر وكانت تتلقاها الموانئ المصرية العديدة التى قامت على سواحل البحر الأحمر منذ الأزمان القديمة .

أما ارتباط اليمن بالحبشة فيتمثل بصورة واضحة فى خضوع الحبشة يومًا لحكم اليمن وخضوع اليمن لحكم الأحباش وهو ارتباط وثيق يدل عليه الأعداد الكبيرة من اليمنيين الذين يعيشون الآن فى الحبشة ، ومن الأحباش الذين يعيشون الآن فى اليمن .

الأهمية الاستراتيجية لليمن :

الواقع أن أهمية موقع اليمن الجغرافي أعطاها إمكانية التحكم فى بوغاز باب المندب هذا المضيق الذى يفصل بين اليمن والحبشة ، وقديماً أعطى هذا المضيق نوعًا من الارتباط بين اليمن والحبشة ، كما أن باب المندب كان بمثابة المعبر الذى ظلت تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ، والموقع الجغرافى اليوم لا يقل أهمية عنه بالأمس حيث ازدات أهميته بعد افتتاح قناة السويس ثم اكتشاف البترول فى منطقة الخليج العربى وأخيراً فى اليمن . كل هذا ساعد على الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لليمن (٢٣).

ويعد البحر الأحمر جزءاً من المحيط الهندى الذى يربط القارتين الآسيوية والإفريقية ففى جنوب آسيا ربط المحيط الهندى بين اليمن والحضارة وبين بلاد الهند وسيلان وأندونيسيا بل ربطهم ببلاد الصين . وعن هذا الطريق كانت تحمل التجارة بينها ومن زمن قديم وعنه انتشر الإسلام فى البلاد الآسيوية على يد العناصر اليمنية والحضرمية .

أما فى إفريقيا ربط المحيط الهندى بين اليمن والعمانيين وبين الإفريقيين على طوال الساحل الشرقي ابتداء من الرأس الإفريقي في الصومال عبر زنجبار حتى موزمبيق ومدغشقر، ومما يزيد من أهمية الموقع البحرى لليمن أنها تتحكم فى بوغاز باب المندب الذى تمر به كافة السفن العالمية التى تمر بقناة السويس . والواقع أن هذه السفن جميعًا تمر فى المياه الإقليمية لدولة اليمن (٢٤).

والواقع أن اليمنيين نجحوا نجاحًا عظيمًا فى استغلال موقعهم الجغرافى سواء فى تلك الجبهة البحرية التى جعلت منهم بحارة مهرة ، والجبهة البرية التى جعلت منهم حملة لتجارة القوافل وحماة لها . وهكذا تحكموا فى التجارة البحرية والبرية وجنوا منها أرباحًا طائلة كانت الرخاء الذى نعم به اليمنيون زمانًا طويلاً ثم علاقاتهم الواسعة بمواطن الحضارات القديمة ومهبط الديانات السماوية جعل اليمنيين يحتضنون الديانات السماوية التى ظهرت فى شمال الجزيرة العربية .

وقد احتكر التجار اليمنيون التجارة لفترة طويلة تقدر بـ ١٥ قرنًا من الزمان ، وكان المحيط الهندى مجالاً واسعًا للتجارة حيث امتد نشاط التجار اليمنيين إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) وماليزيا ، حيث أسسوا مراكز تجارية عظيمة لا سيما فى جزيرة جاوة .

واستفاد الملاحون اليمنيون من حركة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية شتاءً والرياح الموسمية الجنوبية صيفًا ، فقد كان لهم رحلتان سنويًا ، رحلة الصيف إلي جنوب آسيا ورحلة الشتاء وهى رحلة العودة إلى اليمن .

لماذا سمى اليمن بهذا الاسم :

لقد اختلف الإخباريون فى تفسير مدلول اسم اليمن : فإن الكلبى يعلل تسميتها بهذا الاسم بأن أقطن بن عابر(*) نزل فى موضع اليمن فقال العرب تيمن بنور يقطن . وذكر ابن عباس أن اليمن سميت يمنًا لأنها تقع على يمين الكعبة وهو اليمن بخلاف الشام الذى سمى شامًا لوقوعه على شمال الكعبة . وقيل أيضًا أن اليمن سمى يمنًا ليمنه والشام شامًا لشؤمه . ويرد ياقوت على ذلك : " يتامن الناس فسموا اليمن ، لأن الكعبة مربعة ، فلا يمن لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار أخرين ، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليمانى فإنه أجلها ، فإذا يصح "(٢٥) .

والواقع أن بلاد اليمن لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ولا بهذا المعنى أو بذاك فقد ورد اسم اليمن فى نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنيت ، ومن البديهى أن اسم اليمن اشتق من يمنات . ولعل يمنات تعنى اليمن والخير ، فلقد كانت بلاد اليمن فى أقدم عصورها التاريخية بلادًا كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى أنها عرفت لذلك السبب باليمين الخضراء (٢٦).

٣ – اليمن عبر العصور التاريخية :

أ – الدور الإسلامى :

عندما جاءت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وقام بتبليغها ، كان الأوس والخزرج وهما من القبائل اليمنية التى استوطنت المدينة فى أرض الحجاز أول من آمن به وتعده فى نشر

(*) قال قوم : سمى باليمن بن أقطن بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح النبى عليه السلام ، وهو قطر المبارك عظيم البركة جاءت فيه الآثار النبوية على الناطق بها أفضل الرضوان منها : " الإيمان يمان والكعبة يمانية لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن " وقوله صلى الله عليه وسلم : " جاءكم وفد اليمن أرق قلوبًا وألين أفئدة " . وفائدة هذا الحديث أن من رق قلبة ولان فوائده كان أسرع قبولاً للإيمان ، ولذلك إنهم آمنوا بوصول معاذ بن جبل ، وشاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم . (ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧) .

الإسلام وعندما داى النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد وقام بغزواته المعروفة بل وعندما دعا حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم من بعده إلى القيام بالفتوحات الإسلامية المختلفة كان اليمنيون هم أول من لبى نداء الجهاد وأبلوا فى سبيله بلاء حسنًا (٢٧).

والواقع أن انتشار الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعد ذلك فى البلاد الإسلامية الواسعة يدين بالكثير إلى جهود القبائل اليمنية التى تحمست له وبادرت إلى رفع راتبه فى كل مكان . وليس ذلك غريبًا على المجتمع اليمنى ، فتلك هى طبيعته لأنه شعب متدين منذ القدم ، فلقد احتضن الديانات السماوية جميعًا وتحمس لها كما احتضن من قبل عبادة الكواكب والنجوم . ففى عهد الحضارات اليمنية القديمة عبد اليمنيون الشمس والقمر وأقاموا لها المعابد ، ثم بعد ذلك عبدوا الأصنام وأقاموا لآلهتها النصب والتماثيل (٢٨).

واعتنق اليمنيون اليهودية والمسيحية كذلك ، إلى أن ظهرت دعوة الإسلام لبى النداء اليمنيون من كان يقيم منهم فى اليمن نفسها أو خارجها . وكان سبيلهم فى ذلك إما الجهاد أو التجارة ، ففى سبيل الجهاد أسهم اليمنيون ، وهم شعب محارب بطبيعته ، فى فتح الشام تحت قيادة خالد بن الوليد ، وفى فتح العراق تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، وفى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ، وفى فتح شمال إفريقية وبلاد المغرب وأسبانيا تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وفى هذه الفتوح جميعًا كان للمعينيون دورهم الهام .

ومن القبائل اليمنية الرئيسية التى أسهمت إسهامًا فعالاً فى الفتوح الإسلامية قبائل حمير وهمدان وفدج والأزد والأشاعر وزبيد ومراد .

ومنذ مئات السنين قبل ظهور الإسلام لم تكن تعرف فى شبه جزيرة العرب دولة أو مجموعة من الدول باسم اليمن . كانت الأسماء السائدة فى المراجع القديمة القبائل الحاكمة أو ذات السلطان العريض ، فعرفت دولة معين ودولة سبأ ودولة حمير فى جنوب شبه جزيرة العرب وعرفت دولة الأنباط فى غربى شبه الجزيرة إلى الشمال والكلدنيون أو بنى خالد فى شرقى شبه الجزيرة العربية (٢٩).

والدراسة الأركيلوجية الحديثة لإقليم مأرب تبين أن ملوك دولة سبأ فى القرن الرابع قبل الميلاد كان من بين ألقابهم (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمانات أى اليمن) ولكن موقع اليمن والمنطقة التى أطلق عليها هذا الاسم كانت غير معروفة (٣٠).

اليمن المهد الأول للحضارة :

كانت اليمن الحقل الصالح لولادة الإنسان الأول، ولنا أن نتخيل تحت أضواء نواميس التكوين أن اليمن شهدت تطورات هذا الإنسان بخطى منظمة نحو مدنية العالم القديم التى تركت لنا الكتب المقدسة ، منها قصة آدم ونوح عليهما السلام والطوفان والسفينة وما حملته من كل زوج اثنين وأن قوم نوح اتخذوا آلهة ودا وسواعًا ويغوث ويعوق ، وغمرة الماضى بطوفان النسيان ، ماعدا ما حفظته الكتب المقدسة المسجلة لعروبة ذلك العهد بأسمائه وتقاليده وحضارته (٣١).

وقد عرفت بلاد اليمن قديمًا بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور ، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة فى مصر الفرعونية ، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمنى والصومالى مع البخور فى المعابد ، كما كانوا يستخدمونه فى تحنيط جثث الموتى . وبالإضافة إلى قيام أهل اليمن بتصريف منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فعن طريق اليمن كانت لآلئ الخليج الفارسى ، والتوابل والسيوف الهندية والحرير الصينى والعاج والذهب الأثيوبى تصل إلى مصر والشام والعراق(٣٢).

وكانت لمواسم التجارة ارتباطًا وثيقًا باليمن لتميزها بموقعها التجارى الهام بأسواق موسمية معروفة مكانًا وزمانًا داخل اليمن أو خارجها ، بالإضافة إلى الأسواق المحلية ، وكانت طرق القوافل التجارية تخترق اليمن شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ومن ثم كانت لقريش رحلتا الشتاء والصيف الدورية التى لم تختلف عنها إلا بعد أن نشب الصراع بين الإسلام وبين قريش ممثلة للجاهلية العربية ، بالإضافة إلى شخصيات قرشية تجارية هامة كانت ذات علاقة وطيدة بشخصيات تجارية يمانية (٣٣).

والواقع أن الأسواق التجارية ليست للبيع والشراء فحسب بل كانت منتديات عامة تجرى فيها كل شئون القبائل التجارية والسياسية والإدارية والأدبية والاجتماعية .

وللعلماء فى وصف اليمن وما فيه من آثار ومصنفات جمة ، ليس هذا موضع إيرادها . ومدينة اليمن صنعاء ، لأنها كانت فى الصدر الأول والعصر المتقدم كرسى ملك التبابعة ، فكل من ملك حضرموت إلى حجة ، وما وراء ذلك سمى تبعًا ، ووقع اصطلاح أهل ذلك العصر أن

كل من ولى مصر سمى فرعون ، وكل من ولى فارس سمى كسرى ، وكل من ولى الروم سمى قيصراً ، وكل من ولى اليمن سمى تبعًا ، وكل من ولى الحبشة سمى النجاشى (٣٤).

ونظراً لاختلاف التضاريس فى اليمن ، فإن هناك تباينًا كبيراً فى الأحوال المناخية فعلى الهضبة تنخفض درجات الحرارة شتاءً إلى أقل من ٥° مئوية حيث يتكون الصقيع أما فى الصيف فتكون درجات الحرارة مرتفعة وذلك بسبب قربها من خط الاستواء .

وتصل كمية الأمطار التى تسقط سنويًا على هضبة اليمن إلى ما يزيد على ٢٠ بوصة ولكنها قد تصل إلى ٤٠ بوصة فى القمم العليا حيث تسقط الأمطار بغزارة وتتميز المنطقة الزراعية فى اليمن بمحصولين رئيسيين هما البن والذى تزرع اشجاره على مرتفعات تصل إلى ١٦٠٠ متر – والقات التى أصبحت شجرته منافسًا خطيراً للبن، والقات Gatha adulis شجرة تشبه شجرة الشاى إلى حد كبير والذى يصل طولها إلى ٣ أمتار وتمضغ أوراق هذا النبات التى تحتوى على سائل شديد التخدير مثل الكحول ، وينتشر مضغ القات فى اليمن بين كل فئات الشعب ، ولذلك تنتشر زراعته فى مساحات واسعة فى البلاد ، وقد وجد طريقه كسلعة تصدير إلى الخارج ، ومن هنا بدأ كمنافس شديد لشجرة البن (٣٥). وخاصة أن زراعته لا تحتاج إلى مجهود كبير بعكس البن ، ورغم زراعته فى كل مناطق اليمن إلا أنها تتركز حول منطقة تعز فى الجنوب الغربى .

الملاحة والتجارة البحرية فى اليمن :

المصريون هم أول من شق عباب البحر الأحمر طلبًا للبان والمر وسلع أخرى وتعد أقدم تلك الرحلات حين أرسلت الملكة حتشبسوت بعثتها الشهيرة إلى بلاد بونت وهى البعثة التى خلدتها نقوش دير البحرى فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد .

والواقع أن الرحلات البحرية فى ذلك الوقت كانت تغلب عليها صفة الاستطلاع وتحف بها مخاطر جمة ، ولم تصبح بديلاً للتجارة البحرية التى أحكم اليمنيون قبضتهم عليها ، كانت محاولات الإبحار القديمة فى البحر الأحمر تهدف ، فيها يبدو إلى اختصار الطريق البرى بين مصر وبعض أجزاء من إفريقيا الشرقية لاستجلاب بضائعها المرغوبة ، ومن هنا جاءت مشاريع ربط النيل بالبحر الأحمر . أما السلع العربية والشرقية فكانت تأتى بحرًا إلى مينائى قنا وعدن ثم تحمل على الجمال برًا إلى سواحل فلسطين (٣٦).

ومن ثم فإن أى نشاط بحرى لليمنيين فى ذلك الوقت لابد وأنه كان محصوراً بالضرورة فى الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر وفى البحر العربى والخليج العربى لجلب البضائع الإفريقية والشرقية إلى موانئهم ثم نقلها إلى الشمال على قوافلهم ، وهكذا فلم تؤثر محاولات استخدام البحر الأحمر من قبل الشعوب الأخرى على تلك التجارة ومن بينها ماولة داريوس (٥٨٥ – ٤٢١ ق.م) إعادة شق القناة التى تربط النيل بالبحر الأحمر إبان احتلال الفرس لمصر (٣٧).

لقد ظلت اليمن خلال القرون الأربعة الأخيرة على الأقل تشكل قلعة حصينة أرضًا وشعبًا وتراثًا ، امتنعت على كل المحاولات التى بذلك للسيطرة أو التأثير فيها ، سواء من جانب قوى إسلامية أو عربية أو حتى أوروبية غربية . ووقفت بذلك موقفًا فريداً ربما اقتصر عليها دون غيرها من بلدان العالم العربى الحديث من مشرقه إلى مغربه (٣٨).

ب – الدور الحضارى :

اليمن مركز من مراكز الحضارات القديمة فى العالم :

فى الألف الثانى قبل الميلاد قامت حضارة راقية فى أرض اليمن ، كانت تركز على التجارة فى المقام الأول ثم على الزراعة ، أما عن المراحل التى سبقت ذلك والتى تدرجت فيها هذه الحضارة العريقة وتطورت حتى بلغت أوجها ، فقد وصلت الحضارة اليمنية إلى أوج عظمتها فى بداية الألف الأول قبل الميلاد فى عهد الملكة بلقيس عندما تم لقاؤها مع نبى الله سليمان ، وكانت هذه الحضارات معاصرة للحضارات القديمة التى قامت فى مصر والعراق وللحضارتين الإغريقية والرومانية فقامت بينهم جميعًا صلات تجارية وثيقة كان اليمنيون هم حملتها .

وأولى الحضارات اليمنية ازدهرت فى عهد المعينيين فيما بين عامى ١٤٠٠ و ٨٥٠ ق.م. وكان قيامها على مشارف الصحراء فى الطريق الشرقى فى أرض اليمن فيما يعرف حاليًا بوادى الجوف حيث يمتد طريق القوافل التى كانت تحمل التجارة من جنوب الجزيرة إلى مراكز الحضارات القديمة فى الشمال (٣٩).

وبعد المعينيين حمل السبأيون شعلة الحضارة اليمنية فيما بين عامى ٨٦٥ ، ٥٤٠ ق.م. وكانوا كالمعنيين حملة التجارة وحماة لها ، فازدهرت فى عهدهم ازدهاراً عظيمًا ونهضت فى ظلها حركة الإنشاء والتعمير كما نهضت الزراعة التى كانت تعتمد على قنوات الرى وإقامة السدود التى يعتبر سد مأرب العظيم أهمها (٤).

وبعد السبأيين تعهد الحميرين الحضارة القديمة فيما بين عامى ١١٥ ق.م. و ٥٢٥ م فتتابعت ازدهارها ولكنها في أواخر أيامها أصابها الوهن والاضمحلال ، وفقدت التجارة أهميتها بعد أن هجرت طريق القوافل الذى كان يمتد عبر الأرض اليمنية وتحولت إلي طريق البحر الأحمر على يد البطالمة والرومان كما تدهورت الزراعة بعد انهيار سد مأرب العظيم ، وهكذا تعرضت بلاد اليمن للغزو الخارجي على يد الأحباش تارة والفرس تارة أخرى (٤١).

دولة معين :

تعتبر دولة معين من أقدم الممالك اليمنية وأكثرها جهالة عند المؤرخين الإسلاميين لعدم ورود ذكرها فى القرآن الكريم ، أما المؤرخين اليونانيون فلم يعرف مما سجلوه عنها إلا القليل ، وقد بقى تاريخ هذه الدولة مجهولاً حتى عام ١١٤٧ هـ / ١٧٦١م ، حينما بدأ المستشرقون يتعاقبون على اليمن سعيًا وراء البحث ودراسة الآثار اليمنية القديمة وفى مقدمتها كارستن ينبور الدنماركية ، والدكتور ستيرن الإنجليزى ، ثم الضابط الإنجليزى جميز ويليد وغيرهم .

وقد عثر هؤلاء المستشرقون على نقوش معينة مكنتهم من معرفة بدء قيام هذه الدولة واستمرار بقاءها ، وتاريخ انقراضها وأبانت دراستهم من النصوص التى عثروا عليها فى خرائب الجوف وكخربة (معين) و (براقش) و (كمنا) و (نشق) و (ناعط) و (هران) وأن مدينة قرناو كانت العاصمة الأولى لدولة معين وأن مدينة (معين) كانت العاصمة الثانية ، وتقعان فى المنطقة الشرقية مما يلي الجوف (٤٢).

وقد أشار هاليفى الذى عثر على أكثر من ثمانين نقشًا معينيًا إلى أن هذه المنطقة هى أغنى بقعة فى الجزيرة العربية بالآثار . وذهب المستشرق فيلبى إلى أن عدد ملوك معين ٢٢ ملكًا ويتكون من خمس سلالات وأن الحكم فيها كان وراثيًا .

وكانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالاً بالمناطق الشمالية فى شبه الجزيرة العربية ، ونشأت فى الجوف الجنوبى فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين نجران ، وانتفعت معين بسهل متسع يمده بالخصوبة ومياه الرى وادى الخارد وفروعه .

واتخذت الدولة المعينية عاصمتها فى مدينة (قرناو « خربة معين الحالية ») فى شرق الجوف وقد ثبت مسطيلة فى مساحة صغيرة نسبيًا وتبلغ مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذى مدخلين تحميهما الأبراج الحجرية وبقى جزءًا من البرجين الذين يحفان بمدخلها الشرقى وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد

(رصغم) ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاءة أصحابها حتى الآن(٤٣).

وقد تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ولكن يرجح الباحثون أن سلطاتهم بدأت بنفس الصيغة الدينية التى ظهرت عند جيرانهم فتلقب كل منهم بلقب (مزود) ربما يعنى من يزود المعبد بقرابينها ، واعتمد هذا الترجيح على بقاء مزود ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك (٤٤).

ومنذ عام ١٩٧٥م صدر عن مركز الدراسات الشرقية بمدينة (نابولى) الإيطالية مدونة للنقوش المعينية جمعها ونسقها عالم إيطالى اسمه (جيوفانى جاربينى) وتضم تلك المدونة (٤٦٧) نقشًا هى كل حصاد نقوش منطقة الجوف ، وقبل هذا الجهد المفيد بحوالى مائة عام تمكن العالم الفرنسى (جوزيف هاليفى) من زيارة الجوف ونقل إلى المهتمين أول أخبار عن آثار الجوف ونقوشه ولأول مرة فى العصر الحديث بدأت معين تحتل مكانها فى صفحات تاريخ اليمن القديم دولة وحضارة (٤٥).

واستنادًا إلى قلة عناية المؤرخين العرب مقارنة بما ذكروه عن سبأ وحمير استنتج العالم النمساوى (جلازر) فى مطلع هذا القرن أن سبب ذلك هو تقادم العهد على دولة معين ولذلك فمعين هى أقدم الدول اليمنية القديمة ، ودعم رأيه ذاك بما ورد فى نقش صراوح السيئ فى ذكر مدن نشان ونشق وغيرها من الجوف منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ورسخ هذا الرأى الرحالة الإنجليزى " فيلبى " فى منتصف هذا القرن عندما نشر قوائم ملوك معين وافترض القرن الثانى عشر قبل الميلاد بداية لذلك .

وقد تعود الناس بعد ذلك على الأخذ برأى " جلازر " وبقيت معين فى أذهانهم إلى اليوم أقدم الدول اليمنية القديمة . ونشر عالم ألمانى معنى بدراسة اليمن القديم ونقوشه منذ فترة قريبة مقالاً تناول معين ، واعتبر أن كتابة " تاريخ معين " أشد تعقيدًا من كتابة تاريخ أية دولة يمنية قديمة ، ومن أسباب ذلك صعوبة إزاحة الاعتقاد الشائع بأن معين أقدم الدول اليمنية القديمة ، على أن السبب الرئيسى هو توقف الكشف الأثرى في منطقة الجوف (٤٦).

دولة سبأ :

بعد انقراض دولة معين قامت على أنقاضها دولة سبأ أو مملكة سبأ(٤٧) وقد سميت باسم مؤسسها الأول عبد شمس سبأ بن يشجب يعرب بن قحطان بن عابر(٤٨) وهو الذى بنى السد

المعروف بسد مأرب " العرم " وسمى سبأ لكثرة سبيه(٤٩) وهذا هو النسب الصحيح لسبأ حسبما ذهب إليه الكثير من المؤرخين الإسلاميين وغيرهم ، وأكد على ذلك عثور بعض المستشرقين على هذا النسب حرفيًا منقوشًا فى صحيفة من النحاس فى إحدى الخرائب اليمنية حسبما آثار الدكتور جواد على فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) (٥٠).

ويعتبر تاريخ سبأ هو عمود التاريخ اليمنى القديم ، وتكوينه السياسى الكبير وما تلك الدول التى ذكرت معها سوى تكوينات سياسية معاصرة لفترات سبأ ، انفصلت منها أحيانًا واندمجت فيها أحيانًا أخرى مثل دولة معين وأوسان وقتبان وحضرموت ودويلات المرتفعات ، أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة كدولة حمير .

وأقدم الشواهد التاريخية تذكر سبأ ، وأطول صراع وأعنفه دار فى اليمن قديمًا كان حول اللقب الملكى : ملك سبأ وذى ريدان وعندما حسمت حمير الصراع فى أواخر القرن الثالث الميلادى لم يسم ملوكها أنفسهم بملوك حمير وإنما بملوك سبأ وذى ريدان ، وذو ريدان هم حمير ، ورغم أن حمير كانت هى الغالبة على حكم اليمن إلا أن سبأ تصدرت ألقاب ملوكهم تأكيدًا لتلك الحقيقة .

ويرجع تاريخ سبأ إلى عام ٧٢٠ ق.م. فى نص أشورى فى عهد الملك سرجون الثانى الذى أشار فيه أنه تسلم هدية من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب من " يثأمر " الذى هو المكرب السبئى المعروف يثع أمر ، كما ورد ذكر المكرب كرب إيل فى نص أشورى آخر يعود إلى عهد سنحاريب أى حوالى عام ٦٩٥ ق.م. وذكر فيه أنه حين احتفل بوضع حجر أساس " بيت أكيتو" وقد يكون معبدًا أو حصنًا أو قصرًا ، استقبل مندوبًا عن الحاكم السبئى " كريبى إيلو " حمل إليه الهدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب (٥١).

والواقع أن الشواهد المنقوشة من حضارة سبأ لاتزال قليلة ولا تعنى بحاجة الباحث كما أن الدلائل الأثرية الموجودة مازالت قاصرة خاصة إذا علم أن حصيلة العلماء من معلومات أثرية هى نتيجة مسح غير كامل وقد وجدت عن طريق الصدفة .

ويعتبر أقدم ذكر لسبأ ورد فى التوراة وبصيغ مختلفة حوالى ٢٣ مرة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، وتشير الدلائل الحبشية إلى أن هجرة بعض قبائل اليمن إلى الحبشة وإبان الدولة السبيئية كانت فى حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، وذكرت سبأ بعد ذلك فى النقوش اليمنية القديمة وفى القرآن الكريم ، وارتبط ذكرها دائمًا بالرخاء والشهرة .

ويرجع جمهور العلماء أن النبى سليمان عليه السلام قد عاش فى حوالى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، وبناء عليه فإن زيارة ملكة سبأ له ، والمعروفة باسم بلقيس لابد وأن تكون تمت فى ذات العصر .

وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن ، فسبأ عند النسابة هو أبو حمير وكهلان ومنها تسللت أنساب أهل اليمن جميعًا ومهما اختلف الناس فى الأنساب إلا أنها ولا ريب جزء هام من علوم الإنسان التى إن جانبه الصواب أحيانًا فهى تعكس رغم ذلك صدى مفيدًا لمسار التاريخ . وبلقيس هى عند الجميع ملكة سبأ ، وهجرة أهل اليمن ارتبطت بسبأ والبلدة الطيبة التى أشار إليها القرآن الكريم هى فى الأصل أرض سبأ ، وأكثر من ذلك أن أبرز رموز اليمن التاريخية هو سد مأرب قد اقترن ذكره بسبأ وكان تكريمه فى القرآن الكريم بالنكر سببًا فى ذيوع ذكر قوم سبأ وحاضرتهم مأرب فى التاريخ الإسلامى .

أما مأرب فكانت أشهر مدينة يمنية قديمة وهى عاصمة سبأ لقرون طويلة ، وموقعها فى السهل السبئى على مشارف صحراء صيهد يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان والذى كان يمتد من ميناء قنا إلى ساحل المحيط الهندى عبر حضرموت إلى نجران ومنها إلى ددان (العلا اليوم) ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط وتدل الخرائب والاثار المنتشرة والتى تكتنف قرية مأرب الصغيرة ، على الضفة اليسرى من وادى (ذنه)، على ضخامة المدينة القديمة وعظمته ، تلك المدينة التى اعتبرها بطليموس الجغرافى الإسكندرى وسط الإقليم المنافى الأول على الأرض ، وكانت مساحة المدينة حوالى كيلو متر واحد مربع ويحيط بها سور عرضه متر تقريبًا وثمانية أبواب هى نفسها أبواب المدينة (٥٢).

وسد مأرب قديم قدم ازدهار حضارة سبأ الذى يرتبط بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة السد السهيد ، وآثاره الباقية تدل على أن بناء السد مر بمراحل عديدة ، وأنه تجدد مع الزمن ، وكان جدار السد متماسكًا وضخمًا مما جعل بعض الناس يروون عن بناءه أجمل الأساطير فقالوا أن بنائيه هم العمالقة من قوم عاد ، (ضخامة حجارته) مثل لقمان بن عاد وذلك فى سالف العصر والزمان .

ويعتبر سد مأرب أشهر آثار اليمن وأروع عمل هندسى منذ القدم فى الجزيرة العربية وقد بنى بين مازمى الجبلية البلق الشمالى والبلق الجنوبى على وادى ذنه ميزاب اليمن الشرقى .

ووادى ذنه هو أعظم أودية مشرق اليمن كما هو وادى مور أعظم ودية مغربة ، حيث تتجمع مساقط المياه فى المرتفعات الشرقية من ناحية رداع وزمار ومراد وخولان وغيرها ، وتأتى هذه السيول التى تكون عادة موسمية في فصلى الربيع والصيف .

وقد كرم الله تعالى السد فى القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سورة سبأ : آية ١٥ ، ١٦] صدق الله العظيم .

ومن المدن القديمة باليمن مدينة صنعاء وقد ذكر ابن حوقل " أنها كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم " والمعروف أن السبأيين بعد حملة أيليوس جالوس على اليمن نقلوا عاصمتهم من مأرب إلى دمار (٥٣). وصرواح من المدن التى لعبت دورًا هامًا فى تاريخ اليمن القديم ، وتقع بين صنعاء ومأرب ، وينسبون بناءها إلى سليمان بن داود (٥٤). وقد اتخذ السبئيون مدينة صرواح بادئ ذى بدء حاضرة لهم ، وفيها أقاموا المعابد للإله (القمر) ثم انتقلوا فيها إلى مأرب . ومعبد صرواح الكبير اليوم من أهم آثار اليمن القديمة ، أقيم فى القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت صرواح حاضرة لمكربى سبأ على يد المكرب يدع إيل ذريح(٥٥) ومعين ، وكانت فى العصور القديمة حاضرة للمعنيين وإحدى مدينتين معينيتين هامتين ثانيهما براقش التى كانت تسمى بيثل وكانت تقع فى بلاد الجوفى ولم تكن تسمى بهذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم قرنا أو قرنه ومازال موضع معين يضم كثيرًا من الآثار القديمة .

دولة حمير :

تعتبر حمير آخر الدول اليمنية القديمة حكمًا وأخلدها ذكرًا ، فقد اتفق المؤرخون أن عصر " ملوك سبأ وذى ريدان " والعصر التالى له والمعروف بعصر ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت " هما العصران اللذان برز فيهما الحميريين على مسرح الأحداث فى بلاد العرب الجنوبية ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصرى الدولتين الحميرية الأولى والحميرية الثانية .

١ – الدولة الحميرية الأولى : " ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ ق.م. – ٣٠٠م) :

مؤسس هذه الدولة بنو ال شرح يحضب الذى ينسب إليه الإخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن(٥٦) وفى عصر هذه الدولة كانت الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس

جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق.م. للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ ، واستغلال ثروات اليمن وتطهير البحر الأحمر من القراصنة وكان فشل حملة اليوس جلوس السبب فى قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية نحو بلاب العرب ، فعدلوا نهائيًا عن فتح هذه البلاد عسكريًا وبدا الضعف يدب فى كيان دولة سبأ وذى ريدان وتطلع البطالمة ومن بعدهم الرومان إلى احتكار الطريق التجارى عبر البحر الأحمر والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجارة العرب فى اليمن وحضرموت (٥٧).

٢ – الدولة الحميرية الثانية " ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت (٣٠٠م – ٥٢٥م) :

مؤسس هذه الدولة شمر يهرعش المعروف عند الإخباريين بشمر يرعش بن ناشر النعم تلقب عام ٢٩٠م بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت ، ومشر هذا عند الإخباريين هو تبع الأكبر(٥٨) الذى ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ صدق الله العظيم(٥٩) .

وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية ، وهزم الترك ، وهدم المدائن بدينور وسنجار ودخل مدينة السغد وهدمها فسميت شمركند أو شمر كندای عند الفرس ، والتى عربت إلى سمرقند.

وقد شيدت مدينة ظفار عاصمة للدولة الحميرية حيث اتخذت تقويمًا خاصًا بها يبدأ عام ١١٥م قبل التقويم الميلادى ولكن النقوش المتوفرة لا تؤرخ به سوى منذ القرن الأول الميلادى ولا نعرف حتى يومنا هذا ، هذه الحادثة التاريخية التى بدأت حمير تؤرخ لها ومبلغ علمنا أن حمير كانت فى الأصل قبائل تتبع الدولة القتبانية ومناطقها الأصيلة كانت ضمن أراضى دولة قتبان .

وفى القرن الأول بعد الميلاد برزت حمير كقوة ضاربة فى اليمن حيث بسطت نفوذها على أراضى شاسعة كانت ضمن سيطرة قتبان وسبأ وادعت سيطرتها على مناطق سبأ الرئيسية ويعتقد أن أول ذكر فى النقوش الحميرية عثر عليه فى حضرموت ويعود إلى القرن الأول الميلادى ، ويروى ذلك النقش أن الحضرميين صدوا حملة على المناطق الجنوبية مما يوحى بأن حمير آنذاك كانت قد وسعت سيطرتها حتى بلغت السواحل الجنوبية ، ثم خرجت حمير منتصرة فى صراع القوى الذى احتدم بين الأسر المتعددة فى اليمن فى نهاية القرن الأول الميلادىُ ودام حوالى مائة وخمسون سنة (٦٠).

من أهم مظاهر الحضارة اليمنية القديمة :

١ – سد مأرب :

إن روعة وضخامة سد مأرب بأجزائه تدعوا إلى الشك فيما إذا كان قد بدا هكذا منذ عهد سمه على ينوف ، وعهد يثع أمرين ، وقد تعرضت جدران السد أكثر من مرة للهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها ، وأيضًا بتأثير عامل الزمن فى مبانيها ، وسجل عدد من السبئين عدد مرات الإصلاح التي تمت فى عهدهم وكان على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالى فى عهد الملك " ثاران يهنعم بن ذمار على يهد " وابنه " ملكى كرب الذى كان يشاركه فى الحكم وذلك فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى (٦١).

أما مأرب فتقع عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيجان وحضرموت وموانئ البحر العربى ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من التجارة وقامت فى الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نصف كيلو متر مربع ويعرض ٣٥٠ متراً ما كفل لها بعض الحماية الطبيعية (٦٢).

وكانت الأمطار الغزيرة تسقط على المرتفعات فى مواسمها وتجرى على هيئة سيول شديدة أحيانًا فى عدة وديان وينتهى بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبى جبل بركانى مرتفع يسمى جبل البلق ، وهو جبل بين الصحراء وبين المرتفعات فى منطقة مأرب .

وتعد فكرة بناء السد التى استغلها السبئيون من أجل ثلاثة أغراض هامة ، وهى أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادى اذنة وما يمكن أن تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى فى مواسم الأمطار العنيفة ، وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول فى جوف الأرض حين تجاوز هذا الوادى ، وأن يرعوا مستوى مياه الرى عدة أمتار عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها .

وهكذا يميل الرأى إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهى فكرة تخزين المياه خلف بحيرة صناعية أو نحوها نظراً لوجود بيئة يمكن أن تشرب أرضها المياه بسهولة ويسر. وظل سد مأرب يؤدى أغراضه حتى عهد أبرهة فى عام ٥٧٠م أى بعد بداية ما وصلنا عنه بأكثر من أحد عشر قرنًا ، ثم انهار حوالى عام ٥٧٥م بما وصفه القرآن الكريم فى سورة سبأ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [الآيات ١٥ – ١٨] وأقام السبئيون سدوداً أخرى محلية فى عهود متفرقة فى المناطق التى تصلها مياه السهل بعيداً عن منطقة مأرب(٦٣) .

٢ – كتابة المسند :

فى الواقع أن خطوط الكتابات القديمة التى سبقت الخط العربى فى شبه الجزيرة العربية تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وكتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة قديمًا ، سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان ثم شاركتها فيها بعض الإمارات والجماعات العربية الشمالية فى شبه الجزيرة وما يتصل بها جنوب الشام ، بعد أن صور كتبتها فى أشكال حروفها بما يتفق مع مدى اتقانهم لها وربما يناسب مخارج ألفاظهم تعديلات عفوية أحيانًا وتعديلات مقصودة أحيانًا أخرى . وهكذا خرجوا منها بخطوط إقليمية يمكن التمييز فيها أيضًا بين خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها اختلافات قليلة ، ثم مجموعة أخرى من الخطوط اعتمدت أساسًا على قواعد الكتابة الآرامية ، وكتب بها فرق أخرى من الدول والإمارات العربية الشمالية بعد أن قام كتبتها بتحويرها تحويراً مختلفًا إلى حد ما (٦٤).

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرون حرفًا لم نعرف أسمائها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرون حرفًا منها أصوات حروف الهجاء الحالية .

٣ – الفن المعمارى :

لقد أنشئ معبد صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذى أطلق عليه اسم (المقة) كان لفظ (ال) أو (إيل) عند العرب الجنوبية وعند شعوب سامية وقديمة أخرى فى العراق وفى الشام يدل على معنى الإله ثم استخدم بهذا المعنى مثل أسماء إسماعيل وجبرائيل وميكائيل وهلم جر. أما العناصر المعمارية الظاهرة تألفت فى معبد (المقة) فى صرواح من جزئين ضخمين أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو هيئة البيضاوى الناقص وتضمن أحد نصوص المعبد اسم الكرب يدع إيل ذراع وذكر أنه سور معبد (المقه) ويميل الدارسون إلى تاريخ عهد هذا المكرب نحو ٦٦٠ق.م. ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ، إنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره (٦٥).

الصيغة الدينية التى استعان بها المكربون فى تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماماً كبيراً لمعابد معبوداتهم ، إظهارًا لتقواهم الشخصية ، وتأكيداً لصلتهم الروحية بهذه المعبودات ، عملاً على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضًا عن طريق تخصيص المرتبات الدينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وقد أنشئ معبد " معرب " فى قرية المساجد ببلاد مراد وعلى بعد ٢٧كم من مأرب الحالية ، من أجل " المقه " أيضًا وقد أقيم الجزء الداخلى من المعبد الذى تألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ألوان ، ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم فى أواسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة فى صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات ستة أعمدة ولاتزال هذه المجموعة المعمارية فى المعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم ، وهى التى لا تزال عليها أكثر من ما تبقى من آثار الأمم القديمة ونتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء عليها بالترميم جيلاً بعد جيل ، كما تعتبر الآثار الموجودة من أصدق الدلالات على مدى الإمكانيات الفنية فضلاً على المعتقدات الدينية لهم (٦٦).

الهوامش

١ – خديجة الهيصمي : سياسة اليمن في البحر الأحمر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ٦ .

٢ – الميل البحرى = ١٨٥٢مترًا = ١,٨٥٢ كيلو مترًا – الميل البحرى المربع = ٣,٤٢٤ كيلو متر مربع – العقدة البحرية = ١ ميل بحرى – الميل البحرى = ١٦٠٩ مترًا = ١,٦٠٩ كليو مترًا – الميل البحرى المربع = ٢,٦ كيلو متر .

٣ – نبيل أحمد حلمى : أمن البحر الأحمر والقرن الإفريقى ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٨١ .

٤ – عبد الله عبد المحسن سلطان : البحر الأحمر والصراع العربى الإسرائيلى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ص٣ .

٥ – أحمد محمد بن بريك : اليمن والتنافس الدولى فى البحر الأحمر ، دار الثقافة العربية ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ص ١٣ – ١٤ .

٦ – محمد الشعيبى : اليمن (الظواهر الطبيعية والمعالم الأثرية) ، دراسة تطبيقية ومنهجية ، دار الكتب العامة ، صنعاء ١٩٩٨م ، ص ٥٦ .

٧ – عبد اللطيف بن محمد الحميد : البحر الأحمر والجزيرة العربية فى الصراع العثمانى خلال الحرب العالمية الأولى ، ط١ ، الرياض ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ١١ .

٨ – أنور عبد العليم : البحار والمحيطات ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥٣ – ٢٦٧ .

9 - Farid Abdel Magid, the Red sea prospect stability , London, 1992 , p. 72 .

10 - R.W. Girdier, the sea. Ageopotyeal Background, New York, Hot Brnes, 1984, p. 48 .

١١ – أمال شاور : الإطار الجغرافى فى البحر الأحمر ومجموعاته الجزرية ، جزر البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٢٥ .

١٢ – أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ، مضايقه بين الحق العربى والصراع العالمى ، القاهرة ، ١٩٧٧م، ص ١٢ .

١٣ – على حميد شرف : الجزر والقنارات اليمنية في البحر الأحمر (خليج عدن – البحر العربى) ، دار التوجيه المعنوى ، اليمن ، ط٣ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٣ .

١٤ – أحمد شقيله : الاستراتيجيات فى البحر الأحمر ، مجلة معين ، صنعاء ، ١٩٩٠م ، ص ١٣ .

١٥ – عبد البارى اللجم : خليج العقبة ومضائق تيران ، الموصل ، ١٩٧٨م ، ص ٥ .

١٦ – محمود توفيق محمود : البحر الأحمر فى الاستراتيجية الدولية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٧ ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢٨ .

١٧ – خديجة الهيصمى : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

١٨ – محمود توفيق محمود : المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، دراسة فى الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨٣م ، ص ٢٨ .

١٩ – فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ١٨٣٩م – ١٩١٨م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٢٢ .

٢٠ – السيد عليوة : سياسة اليمن فى البحر الأحمر ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ ، أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٩٦ .

٢١ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، جـ٣ ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ٨ .

٢٢ – عبد الله محمد أحمد : جغرافية اليمن الطبيعية ، المنتدى الجامعى للنشر والتوزيع ، صنعاء ، اليمن ، ط٢ ، ٢٠٠٢ ، ص ٦ .

٢٣ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٤ – محمد متولى، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ٧ .

٢٥ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، مؤسسة شباب الجمعة ، ط١ ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص ٨٩ .

٢٦ – تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى : بهجت الزمن فى تاريخ اليمن ، محمد أحمد السنباتى، دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٧ .

٢٧ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

٢٨ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٩ – نفس المرجع ، ص ٧ .

30 - Wenner M.W. Modern vemen (1918 - 1966) Beltimore, 1967, p. 72 .

٣١ – عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحى : اليمن (الإنسان والحضارة) منشورات المدينة ، بيروت، ١٩٨٥م ، ص ٣ .

٣٢ – فتحى محمد أبو عيانة : دراسات فى جغرافية شبه جزيرة العرب ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٦م ، ص ١٤٦ .

٣٣ – صالح أحمد العلى ك محاضرات فى تاريخ العرب ، ج–١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ١٥ .

٣٤ – عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع : تاريخ اليمن فى الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، دار الفكر ، صنعاء ، اليمن ، ط٣ ، ١٩٩٩م ، ص ٤٥ .

٣٥ – تاج الدين عبد الباقى ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

٣٦ – محمد عبد الله بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، مؤسسة الدينية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٧٩ .

٣٧ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٣٨ – انجار أوبلانس : اليمن (الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م) ، ترجمة وتعليق عبد الخالق محمد لاشين، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٠ ، ص ٥ .

٣٩ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ١٩ .

٤٠ – نفس المرجع .

٤١ – نفس المرجع .

٤٢ – عبد الله حسن الشيبة : دراسات لمى تاريخ اليمن القديم ، مكتبة الوعى الثورى للطباعة والنشر ، ط١ ، تعز ١٩٩٩م ، ص ٤٤ .

٤٣ – نفس المرجع ، ص ٤٥ .

٤٤ – نفس المرجع .

٤٥ – يوسف محمد عبد الله : أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره ، دار الفكر ، سورية ، ط٢ ، ١٩٩٠م ، ص ٢١٢ .

٤٦ – نفس المرجع .

٤٧ – ابن رستة : الأعلاق النفيسة ،لندن ، ١٨٩٢م ، ص ١١٣ .

٤٨ – ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١ .

٤٩ – نفس المصدر : مجلد ٥ ، مادة مأرب ، ص ٣٤ .

٥٠ – تاج الدين عبد الباقى : نفس المرجع ،

٥١ – عبد الله حسن الشيبة : المرجع السابق ، ص ١٢ .

٥٢ – يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

٥٣ – صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ، جـ١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ٢٤ .

٥٤ – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة مرواح ، ص ٤٠٢ .

٥٥ – أحمد فخرى : اليمن ، بحث فى المؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقدة فى فاس ١٩٥٩م ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢٣٤ .

٥٦ – الهمدانى : الإكليل ، جـ٨ ، تحقيق د/ نبيه أمين فارس ، ١٩٤٠م ، ص ١٩ .

٥٧ – فيليب حتى : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٦٩ – ٧٢ .

٥٨ – السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

٥٩ – سورة الدخان ، الآية ٣٧ .

٦٠ – يوسف محمد عبد الله ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

٦١ – نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

٦٢ – عبد الله الشيبة ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٦٣ – نفس المرجع ، ص ٩١ .

٦٤ – نفس المرجع ، ص ١٠٠ .

٦٥ – نفس المرجع ، ص ٨٢

٦٦ – نفس المرجع ، ص ٨٩ .